الهوية التاريخية للغرب

تحدثنا في الحلقة الأولى من هٰذا البحث عن الظروف التي واكبت اعتناق محمد أسد للإسلام كما رواها في كتابه (الطريق إلى الإسلام). ورافقنا محمد أسد في الحلقة الثانية في رحلته للقاء الشهيد عمر المختار وفي هٰذه الحلقة سنترك محمد أسد يصف لنا ويحلل بعمق موقف أصدقائه الغربيين من اعتناقه الإسلام.

يقول في مقدمة كتابه المذكور «لم يستطع معظم أصدقائي الغربيين أن يتصـورا كيف أن رجلا غربي المولد استطاع أن يستبدل بتراثه الغربي التراث الإسلامي وكيف استطاع قبول أيديولوجية دينية واجتماعية كانت في اعتقادهم المـطلق أحط كثيراً من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية. ولقد ساءلت نفسي: لماذا يفرض أصدقائي الغربيون ذلك ويسلمون به بمثل هٰذه السهولة؟ هل أزعج أحدهم نفسه حقا بدراسة الإسلام دراسة واعية مباشرة؟ وهل يمكن أن تكـون طريقـة التفكير اليونـانية الـرومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة وبرابرة من جهة أخرى لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل ولو نظريا بالقيم الإيجابية لأي شيء يقع خارج مدارهـا الثقافي الخاص؟ إن الأوروبي أو الأمريكي العادي يستسلم ويرضخ بسهـولـة إلى الوهم الخادع الذي يصور أن طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن ان يتخذ مقياسا للحكم على سائر طرائق الحياة وأن كل مفهوم ثقافي أو تقويم أدبي أو مؤسسة اجتماعية تتعارض مع النموذج الغربي إنما تنتمي حتما إلى درجة من الوجود أدنى وأحط.

وعندما عرضت وجهة النظر هٰذه على صديق أمريكي لي وهو على درجة عالية من الثقافة قال: ولكننا نحن الغربيين نهتم فعلا في هٰذه الأيام بما يجري

خارج فلكنا الثقافي الخاص. إن أحدا لا يمكن أن يكون منصفا إن هو تجاهل هٰذه الرغبة التي يبديها الغربيون في تفهم ما يمكن أن تملكه وتقدمه الثقافات الأخرى.

ولقد أجبت صديقي: أني لا أشعر أن الغرب قد أصبح فعلا أقل تكبرا من اليونانيين والرومانيين نحو الثقافات الأجنبية بل أكثر تساهلا فقط وكذلك فإنه لم يصبح أكثر تسامحا نحو الإسلام بل نحو ثقافات شرقية معينة أخرى تقدم نوعا من الجاذبية الروحية المتعطش إليها الغرب وفي الوقت نفسه بعيدة جدا عن النظرة الغربية العالمية بحيث لا تشكل أي خطر حقيقي على قيمها. عندما يبحث أحد الغربيين في الهندوسية مثلا أو البوذية فإنه يعي دائما الفروق الأساسية بين هذين المعتقدين وبين معتقده الخاص. إنه قد يعجب ببعض آرائهما ولكنه بطبيعة الحال لا يمكن أن ينظر في إمكان الاستعاضة بها عن آرائه الخاصة وبما أنه ـ بداهة ـ يعترف باستحالة هٰذا الاستبدال فيمكنه أن يتبصر في مثل هٰذه الثقافات التي هي بحق غريبة عنه برصانة واتزان بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام وهو ليس غريبا عن القيم الغربية بمقدار الفلسفتين الهندوسية أو البوذية فإن المحاباة العاطفية تفعل فعلها في هٰذه الرصانة الغربية فتضطرب وتختل. وإني لأتساءل هل السبب في ذلك يعود إلى أن قيم الإسلام قريبة فعلا من قيم الغرب إلى درجة تكفي لأن تشكل خطرا ممكنا على كثير من المفاهيم الأوروبية في الحياة الروحية والاجتماعية.

ثم تابعت حديثي فذكرت له نظرية تصورتها قبل بضع سنين تساعد المرء على أن يفهم التعصب المتأصل ضد الإسلام في الأدب الغربي والفكر السياسي المعاصر وقلت: إن ما يفكر به الغربيون ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات ولدت أبان الحروب الصليبية. وهنا هتف صاحبي: إنك لا تعني أن ما حدث منذ ألف سنة يمكن أن يظل له تأثير في القرن العشرين؟

وأجبت: لقد أظهر المحللون النفسيون أن جزءا كبيرا من الحياة العاطفية عند الإنسان الناضج يرجع إلى خبرات تمت له في بدء تكوينه في أيام طفولته

المبكرة. وكذلك فإن الأمم والمدنيات يرتبط نموها بخبرات طفولتها المبكرة. والقرن الذي سبق الحروب الصليبية مباشرة يمكن أن يوصف بالطفولة المبكرة للمدنية الغربية فقد كان العصر الذي أخذت فيه أوروبا لأول مرة منذ سقوط روما تتبين طريقها الثقافي الخاص وفي إبان تلك المرحلة شديدة الحساسية تلقت أوروبا أكبر صدمة عرفتها: الحروب الصليبية وقد كان لتلك الحروب التأثير الأقوى على مدنية بدأت تعي ذاتها فهي تمثل أول محاولة قامت بها أوروبا في سبيل النظر إلى نفسها على ضوء الوحدة الثقافية وكانت ناجحة تماما وعندما حض البابا «أوربان الثاني» في كليرمون سنة ١٠٩٥ المسيحيين على أن يشنوا الحرب على الجنس الشرير الذي كان يمتلك الأرض المقدسة كان يعلن ميثاق المدنية الغربية.

وإذا كان لدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان من الضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح وأن يصور دينه بأكلح العبارات كينبوع الفسق والفجور والانحراف عن الحق. وبذلك فإن العداوة للإسلام صاحبت ظهور المدنية الأوروبية.

وقد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هٰذا الحقد الغربي القديم ضد الإسلام قائما في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من التأثير في مخيلة الغربي بيد أن شخصاً ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التي لقنها في طفولته ومع ذلك فإن انفعالا معينا ذا صلة بتلك المعتقدات في الأصل يستمر دون وعي في حالة العمل أبان حياته في ما بعد وهٰذا بالذات هو ما حدث لتلك الشخصية: المدنية الغربية، إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هٰذا».

هٰذا التحليل للملامح المميزة للهوية التاريخية للغرب يكتسب أهمية بالغة هٰذه الأيام حيث يعاد رسميا اعتبار التراث المسيحي كعامل موحد للأوروبيين ومميز لهم عن المسلمين. وقد نشرت جريدة الدستور الأردنية ليوم ١٩٩٢/٣/٥ ترجمة لدراسة قام بها المؤرخ «إدوارد مورتيمر» ونشرتها فصلية إنترناشيونال افيرز ـ الشؤون الخارجية ـ التي يصدرها المعهد الملكي البريطاني

التابع لجامعة كامبردج وقد نشرتها الدستور تحت عنوان (الإسلام والمسيحية من منظور غربي) وبمقارنة طروحات كل من محمد أسد و«إدوارد مورتيمر» يمكننا التوصل إلى تحديد دقيق لطبيعة العلاقات بين الغرب وبين المسيحية كعقيدة وكتراث وبين الإسلام.

يرى «مورتيمر» أن المسيحية قد انتعشت بعد الثورات والتحولات في أوروبا الشرقية بحيث أصبح ينظر للتراث المسيحي كعامل يوحد الأوروبيين ويدهش «مورتيمر» للسرعة التي تحول فيها المجتمع وحتى الدولة إلى الكنائس للبحث عما يملأ الفراغ الأخلاقي والروحي بعد انهيار الأيديولوجية الشيوعية. ويقول إن أوروبا الغربية قد اكتشفت ـ بعد انهيار الكتلة الشرقية ـ زملاء لها أوروبيين مثلها يشاركونها ثقافتها وتراثها الديني ويطمحون بمشاركتها الحرية والازدهار وأن الغرب يرغب في التقرب من شعوب شرق أوروبا والتأكيد على ما هو مشترك بينهم وليس مشتركا بينهم وبين الآخرين وبذلك تظهر الحاجة لاكتشاف تهديد جديد يحل محل التهديد السوفياتي وإن الإسلام يبدو جاهزا لهذا الغرض.

لماذا الإسلام؟

ويجيب «مورتيمر»: لأننا بحاجة إلى شيء نراه غريبا عن مجتمعنا ومصدر تهديد لنا. ولماذا يكون الإسلام مصدر تهديد لهم؟ ويجيب «مورتيمر»: بسبب الجوار الجغرافي وبسبب ذكريات مسلسلة من المنازعات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين يبدو فيها المسلمون غزاة، ويعدد «مورتيمر» احتلال المسلمين لإسبانيا وأجزاء من فرنسا وإيطاليا ثم شرق أوروبا على يد العثمانيين ثم موسكو على يد التتار ثم يقول: الأوروبيون يتناسون حقيقة أنهم غزوا واحتلوا معظم الأقطار الإسلامية في العصور الحديثة وإذا تذكروا ذلك فإنهم يبررونه بأن المسلمين أشرار وأنهم كانوا يقاومون الاستعمار تحت زعامة وبشعارات دينية ولذلك يصفون المسلمين بالتعصب الديني. ويدلل «مورتيمر» على انحراف النظرة الغربية عن معاييرها حينما تتعلق بالمسلمين بتحاملهم تجاه الفلسطيني الذي يقاوم الاحتلال الإسرائيلي وموقفهم من الثورة الإسلامية في إيران ومن

المقاومة الأفغانية ثم بازدواجية موقفهم نحو التطلعات التحررية لأذربيجان وجمهوريات البلطيق وحملتهم على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل بينما تمتلك إسرائيل مثلها ثم بالتمييز الموجه ضد الأقليات الإسلامية في غرب أوروبا مثيرا موضوع تغطية الطالبات المسلمات لرؤوسهن في المدارس الفرنسية وينتهي بمعارضة المجموعة الأوروبية النظر في طلب تركيا الانضمام إليها.

ويرى «مورتيمر» أن استمرار عدائية الغرب للإسلام تكمن في التساؤل حول إمكانية إقناع الإسلام بتبني قواعد وأحكام المجتمع العلماني وهو يعرف العلمانية لا بأنها تعني الإلحاد والكفر ولكن بأنها عدم التمييز بين المواطنين على أساس الدين ويعترف بأن العلمنة ليست كاملة في الغرب لا على الصعيد الداخلي ولا الخارجي ويدلل على ذلك بأن الأحزاب المسيطرة في عدة دول أوروبية غربية هي الأحزاب الديمقراطية المسيحية وبالربط الوثيق والمتكرر لكلمتي أوروبا والمسيحية وبأن الزعماء الثلاثة الذين وضعوا أسس المجموعة الأوروبية كانوا من الديمقراطيين المسيحيين ومن الكاثوليك.

وهنا تظهر ازدواجية في طروحات «مورتيمر» فالغرب يعادي الإسلام لأن الإسلام لا يتبني العلمانية بينما تتمحور الشخصية الحضارية للغرب حول المسيحية. ولحل هذه الازدواجية يقول في ختام دراسته: «إن كافة هذه العوامل تدفع أوروبا لتعريف نفسها ليس على ضوء العقيدة المسيحية بل على أساس التراث المسيحي والتأكيد قدر الإمكان على التميز والحدود بينها وبين عالم الإسلام» ـ وهكذا تصبح العلمانية نفسها جزءا من التراث المسيحي عند «مورتيمر» ـ وينهي «مورتيمر» دراسته بتوصية: ينبغي على أوروبا أن تجد طريقة لتعريف وتحديد نفسها بأسلوب بناء وأكثر انسجاما مع مبدأ التعايش وليس اعتمادا على النظرة الدينية فقط.

ونحن نعلق على طروحات «مورتيمر» بما يلي:

أولا: إذا كانت العلمانية تعني عدم التمييز بين المواطنين في الدولة الواحدة فهي حتما ليست نتاج التراث المسيحي الغربي ويكفي ذكر مذبحة

سانت بارثوليمي والاضطهادات الدينية بين الفرق النصرانية بعد حركة الإصلاح والتي سميت في فرنسا بالحروب الدينية واستمرت من ١٥٦٢ إلى ١٥٩٨ لتبديد هٰذا الوهم بل ما لنا نذهب بعيدا، يقول إلياس خوري عن علاقة المسيحيين العرب بالغرب: «كانت هٰذه العلاقة صراعية منذ المحاولات الصليبية الأولى لتوحيد العالم وإخضاعه لمركز واحد وقادت إلى محاولات لا متناهية لتصفية كل وجود مسيحي مختلف ويحمل ملامح حضارية وثقافية متميزة» (عن كتاب المسيحيون العرب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ص ١٠١) ويمكننا القول بأن عدم التمييز بين المواطنين في الدولة الواحدة على أساس الدين هو من خصائص التراث الإسلامي وستبقى قاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» أنبل مبدأ دستوري وأخلاقي عرفته الإنسانية إلى اليوم والواقع التاريخي يشهد بذلك. يقول فكتور سحاب: «إن المسيحيين في أرض الإسلام كان لهم مكان في الدولة الإسلامية ولم يعانوا من الاضطاد إلا في ثلاث حقب: الحقبة السابقة للإسلام أي أيام السيطرة البيزنطية، الحقبة الصليبية ثم الحقبة الراهنة وهي حقبة السيطرة الأوروبية (الكتاب السابق ص ٧٨).

ثانيا: إذا نظرنا للعلمانية بمفهومها الأوسع كعزل لتأثير الدين على الحياة الاجتماعية واعتباره قضية فردية فإن هٰذه العلمانية إنما كانت نتيجة لثورة الغرب على الممارسة الكنسية للمسيحية وذلك برفض سلطة الأكليروس على الأرواح أولا عن طريق حركات الإصلاح الديني ثم برفض السلطة الدنيوية للكنيسة وما تبع ذلك من رفض نظرية الحكم الإلهي والثيوقراطية وقيام نظريات العقد الاجتماعي وفي كل ذلك نلاحظ آثار الفكر الإسلامي فالإسلام لا يعرف تسلطا لطبقة معينة باسم تخويل رباني ما لا على العقل ولا على الروح ولا على الجسد. ومن هٰذه النظرة الإسلامية استمد الغرب مبادىء ثورته على الكنيسة ومبادىء نهضته كما وضحت ذلك المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه» في كتابها العقيدة والمعرفة.

ثالثا: إذا كانت العلمانية هي ما يميز التراث الغربي ـ في زعمهم ـ فلماذا يحلو لهم أن يسموا هٰذا التراث بالتراث المسيحي في مواجهة الآخرين؟ يقول

المطران «جورج خضر»: «التلاقي بين الكنيسة الكاثوليكية والنفوذ الفرنسي في العالم استمر بالرغم من فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر فلا يصدر عداء الدولة للأكليروس ويمهد المبشرون العساكر. . النموذج الكاثوليكي كان إلى حد قريب في العالم كله ولا يزال إلى اليوم هو النموذج الصليبي»، وعن البروتستانية الغربية يقول: «على صعيد التواصل بين الدين والسياسة كنائس الغرب واحدة. . أنا لا أجهل الفروق بين الكنائس من حركة الإصلاح والكثلكة ولكن أباهما واحد وهو أوغسطين، الإنسان الغربي واحد هو إنسان الهيمنة وإرادة الهيمنة تتخذ لنفسها مجال الدين ومجال الدنيا بآن، الغربي ورث الصليبية نموذجا جماعيا بالمعنى الوارد عند «يونغ» (عن كتاب المسيحيون العرب ص ٨٥ وص ٨٦). العلمانية التي يزعمونها والصليبية التي يمارسونها هما إذن وجهان لعملة واحدة هي إرادة الهيمنة وفي سبيل الهيمنة يمكن تقليب المفاهيم على كل الأوجه الممكنة وغير الممكنة.

رابعا: يمكننا إذن تعريف الهوية الحضارية للغرب بأنها عنصرية قائمة على التراث التاريخي المشترك وقد كانت المسيحية الكنسية حلقة في هٰذا التاريخ المشترك ولكن إذا كانت الحروب الصليبية قد أعطت أوروبا كينونتها السياسية فإن كينونتها الثقافية كما هي اليوم جاءت بالتحديد من صراعها مع رفض الكنيسة الاعتراف بالطموحات الدنيوية للإنسان يقول محمد أسد: «لقد رأيت في ترك الغرب التاريخي للمسيحية ثورة ضد ازدراء الحياة الدنيوية الذي بشر به «بولس» والذي أبهم قديما جدا وتماما جدا تعاليم المسيح». ولذلك أصبحت قيمها اليوم هي الحرية والازدهار كما يقول «مورتيمر»، وفي هٰذا الصراع أيضا كان للإسلام دور تاريخي هام فاتصال أوروبا بالمسلمين منذ القرنين التاسع والعاشر عن طريق الأندلس ثم الحروب الصليبية قدم لأوروبا نموذجا لدين لا يرى تعارضا بين مطالب الإنسان الدينية والدنيوية بل يرى أن عمارة الدنيا جزء من عبادة الله التي خُلق الإنسان لها.

خامسا: إن الغرب حين استمد القيم الإسلامية من إنكار التسلط الأكليروسي وشرعيته بل تقديس عمارة الدنيا كان في حرب سياسية وعسكرية مع

الإسلام وعليه فحين ترك الغرب المسيحية لم يتجه إلى الإسلام بل رفض الدين كله في النهاية. واليوم يمارس الغرب فيما يتعلق بالحرية والازدهار قيما مجتزأة من الإسلام ولكنه يرفع شعار التراث المسيحي ولذلك يرى محمد أسد أن خطورة الإسلام على الغرب تكمن في تقارب قيمهما بينما يزعم «مورتيمر» أن الإسلام مصدر تهديد للغرب لغرابته عن مجتمعاته وهذا من قلب المفاهيم على كل الأوجه الممكنة وغير الممكنة كما يمارسه الغرب.

سادسا: حيث أن الغربيين يعلمون بمديونيتهم نحو الإسلام في «حريتهم وازدهارهم» ولما كانت إرادة الهيمنة هي طابعهم المميز فإنهم ليس فقط ينكرون فضل الإسلام بل يحاولون تدميره بكل الوسائل فهم ـ شأن كل سارق ـ في توجس دائم من أن تكشف أسرارهم وفي سعي دائب مستمر للتغطية على مصادرهم على أمل الإبقاء على إيهام أنفسهم والعالم من حولهم إنهم بعبقريتهم الفذة ابتدعوا المثل التي يزعمون حملها. وهذا ليس كلاما نظريا فالرشدية اللاتينية التي خلصت أوروبا من ربقة الحكم الكنسي كما تقول موسوعة «كوليار» الأمريكية طمست كتبها وأخفى مجرد وجودها من معالم التاريخ مدة ستة قرون حتى أعلن وجودها على الناس «آرنست رينان» في القرن التاسع عشر (راجع تاريخ الفلسفة الأوروبية في القرون الوسطى ليوسف كرم) وهذا يفسر مرواحتهم بين اعتبار الإسلام قريبا أو بعيدا من ثقافتهم «فمورتيمر» هنا يراه بعيدا عن ثقافتهم عندما يعني بها التسامح المزعوم والحرية الدينية بينما يحاول الآخرون ضم الإسلام إلى منظومة الأديان التاريخية في محاولة لسحب مثالبها عليه كالتسلط الأكليركي والثيوقراطية ومسخ معالمه وطمس تميزه وتفرده في تاريخ الإنسانية.

وهذا يفسر كذلك لماذا يقف ديمقراطيون علمانيون ضد سفير ألمانيا في المغرب الذي أسلم مؤخرا وكتب عن الإسلام ويطالبون بمنع تمثيله لحضارتهم «العلمانية» المحايدة(؟).

وعليه فالإسلام لا يعري ادعاءات وأكاذيب الثقافة الغربية المعاصرة فحسب ولكنه يقدم النموذج البديل والذي لا مكان فيه لهيمنة عنصرية دعية، بل

إن مجرد استمرار وجود المسلمين يذكر الأوروبيين بفشلهم في طمس معالم جريمتهم في الحروب الصليبية والتي استمرت في حروب الاستعمار وتتبعها اليوم الحروب التدميرية التي يقومون بها باسم شرعيتهم الدولية وأنظمتهم العالمية المتجددة دوما ولذلك يطالبون دائما بتذويب الشخصية الإسلامية بينما يتمسكون بشخصية تاريخية مزعومة قد أطرحوا مضامينها منذ زمن بعيد **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾** [التوبة: ٣٢]. صدق الله العظيم.

نشرت في جريدة اللواء ١٩٩٢/٤/٢٩